٢ – جـــوته

للأستاذ يوسف عبد المسيح ثروت

تابع ما نشر فى العدد ٦٨٦

غوته يعتزل الحياة السياسية :

وأخيراً وصلوا إلى النتيجة المحتمة فقال : « كم أكون أحسن حالا وأهدأ بالا إذا أنا نسيت المشاجرات السياسية ووجهت قواى للعلوم والآداب التى لأجلها ولدت . وكل من يهمل حياته الوظيفية — إلا إذا كان أميراً سيداً — فهو إما أن يكون سخيفاً أو متعصباً أو مجنوناً » . وبمرور الزمن أصابت غوته الهموم وهاجمته الغموم ، فأصبح مريضاً مرة أخرى وأراد التخلص من هذا الوضع الذى تردى فيه فقرر الفرار ناجياً بأهابه . وكان سبب ذلك — على ما نعلم — حادث غرام سقط فى شبكته وذلك بتعلقه بالآنسة (فون شتاين) تلك الفتاة الغامضة الخفية ، التى لم تخص من الجمال ولا من العاطفة بشئ يذكر . وقد كان لهذه الحادثة تأثير بالغ فى حياته مدى جيـــل . ولو لم يفر بجلده لتحطمت حياته آنذاك ، وكانت إيطاليا فى هذه المرة محط رحاله — تحت سماء بهيجة رائعة وفى وسط شعب جنوبى ، أما هـذه المرحلة من حياته فقد جعلها للتأمل فى الفنون العظيمة ، وكانت بمثابة تجربة أغنى بمعانيها وألطف فى مدلولها من حادثة غرام تظاهر فيها الفروسية الـكاذبة التى شاءت الصدف أن تفرض عليه فرضاً فى (وايمر)

إن إدراك معنى هذه التجربة صعب جدا ليس علينا وحسب بل حتى على المؤرخين الأدباء ودارسى غوته ، فهم لا يعرفون عنها شيئاً ، وهم يعترفون بذلك صراحة . ومن الـيسير علينا أن نشعر بما كان يشعر به من عواطف هى عواطف السعادة والتحرر والانعتاق ، والتى يعبر عنها بتعجب بأقواله « إننى ولدت ولادة ثانية ، ولادة حقيقية فى اليوم الذى وصلت فيه روما » وأشعر « بشباب جديد ، شباب ثان ، إنسان جديد ، حياة جديدة » و « أشعر بتغيير فى نخاع عظامى » . كل ذلك أظهره فى رسائله التى بعث بها إلى (شارلوت فون شتاين) التى تركها بدون وداع

إن الشمول هو الغرض الأساسى الذى كان يسعى إليه جهد استطاعته ؛ والكلمة التى كانت لاتفارق شفاهه باستمرار فى ذلك الوقت ، فالتاريخ الطبيعى والفن والأخلاق الخ أصبحت جميعاً منسجمة بنفسه ؛ وقد علق على ذلك بقوله « إنى أشعر أن شمسى تسطع سطوعا باهرا » . أجل إن شمسه سطعت فى تأملاته التى كان يخص بها الفنون القديمة ، وكان ينظر إليها لا كنظار رجل يذرى شيئاً بعيدا عن نفسه ، بل كان ذلك طبيعة نامية فيه ، فقال عن نفسه « إن العاقل المريض والضعيف سابقاً يمكن أن يتنفس الحرية بطلاقة مرة أخرى »

ماذا علمت إيطاليا بعبقريته

ليس فى مكنتنا سوى تخمين العوامل التى أثرت فى شخصيته .. ومن هذه العوامل علاقته بجزائر البحر الأبيض المتوسط ، التى كان لدمه بها صلة وكان لهذا العامل (اللاألمانى) فوائد تحريرية عليه ، فهى التى وسمت غريزة العظمة فيه ؛ وهذه الغريزة مستمدة من الغريزة التاريخية . وقد وضعت إيطاليا الصبغة النهائية على قسمات وجهه ، فأصبح الألمانى المهذب ذا وجه ألمانى بالنسبة إلى وطنه ، ووجه ثان هو أقرب إلى وجوه الوطنيين الخجولين والمتظاهرين بالحشمة ، وفى الوقت نفسه تغير فيه كل شئ فأصبح متزنا كاملا مكتفياً بذاته ، منطويا فى قرارة ذاته على نفسه ولهذا اتصاله بالناس صعبا جدا ، ولم يبق من صلاته الصداقية القديمة شئ يذكر ، فشعر كل واحد من أصدقائه بالبرودة المتجمدة التى كانت تظاهر عليه

وقد علق أحد أصدقائه بعد أن قضى معه ليلة من الليالى بما يلى : « وشعرنا وكأننا نعيش فى محيط بارد جدا وكانت السآمة تخيم علينا بثقلها ، وأضحت شهامته ملاطفة وحشمته ظاهرية . أما (شلر) الذى لم يكن يلحظه غوته فى غضون إقامته فى أول شتاء قضاه فى (وايمر) فقد حدثنا عنه بقوله « كانت له موهبة تأسر الناس وتسحرهم سواء أكان ذلك فى الأمور البسيطة أم الكبيرة ؛ على أنه كان يحتفظ بنفسه فوقهم ، وكان الناس يشعرون بوجوده بسرور بالغ ، ولـكن وجوده كان كوجود الآله لا يعطى من نفسه »

ولكن عملا منافيا اجترحه بعث الناس ذوو الأخلاق العالية والسلوك الحسن على الغضب عليه، وتتلخص هذه الفعلة بإيوائه فتاة إلى سريره، وكانت هذه الفتاة جميلة جداً وجاهلة جداً، وكانت بائعة ورد واسمها (كريستيانا فولبيوس)، وكانت هذه العلاقة علاقة دعارة استفزازية صارخة؛ ومع ذلك فقد جعلها بعد عدة سنين علاقة شرعية، ولكن المجتمع لم يغفر له ولا لها، وولدت كرستيانا له عدة أطفال، ولم يبق منهم في قيد الحياة إلا أوغست الذي وصل إلى منتصف العمر وأصبح ثملا مرهقاً على والديه بسلوكه المتوحش وأخلاقه الفظة وعاداته الذميمة وعربدته الشائنة

كان غوته يشبه في شبابه «أبولو» أو هرمز (اللهم إلا قصر ساقيه) يشبههما في رشاقته، ولكنه اكتسب سمنة عندما بلغ من الكبر عتياً، وكان ذلك في إيطاليا وفي بداية القرن الذي لازمه طويلا فأصبح وجهه بديناً كثيباً وخدوده متهدلة فتحول أبولو حتى غدا (جوبتر) بالذات، رأس رائع وحاجبان بديعان بارزان يعلوهما شعر غزير ملفوف معتنى به، وعينان سوداوان يشعان بالروح مظللتان بظلال التعب والكلال، كما أن لباسه كان يميل بمظهره، إلى المحافظة، أما خشونته التي طالما كان يفتخر بالتظاهر والتباهي بها في شبابه فقد اتخذت شكلا واقعيا في سيماء الرجل العجوز، وهكذا اجتمعت فيه خشونة عسكرية وتظاهر رسمي وخيلاء خادعة، فحولت كلامه إلى حديث رجل متعلم عادي

غوته يصبح أسطورة العظمة

تمتاز الفترة بين السبعين والثمانين من عمر غوته بأنها فترة العظمة الأسطورية، وبأنه أصبح المثل الحقيق للثقافة الغربية في أوسع معانيها، فشرع الناس يحجون إليه من جميع أنحاء العالم، وكان غوته يكره النظر خلال النظارات، ولذلك لم يكن يحظى لابسو النظارات بمحاورته! أما الزائرون الذين زاروا أماكن غريبة أو شاهدوا مناظر بديعة فقد كانوا محط حظوته والتفاته، وكانت أوامره إليهم تتلخص بـ «قف! دعنا ننقل هذا الموضوع بحثا». كانت فيه رغبة ملحة لمعرفة كل شيء، وإرادة للتصرف على جميع الحقائق التي يمتلكها الآخرون، وإذا ما أظهر أحد الزوار شيئا طريفا أو قدم معلومات ممتعة دعاه للعشاء معه، فيقدم له ما يشاء من المأكولات والمشروبات على طريقة الملوك، وربما سمح له بمشاهدة المجموعات النادرة من الزخارف النحاسية والأوسمة والآثار القديمة التي كان يحتفظ بها في قصره الفخم الذي أهداه إياه الدوق المعظم «قصر فراد بلات»؛ إن الاحترام الهائل الذي حظى به الرجل كان راجعا بالدرجة الأولى إلى جلال كتاباته البديعة، ومما لا شك فيه أن أسلوب حياته وما كان يهواه من العلوم والهوايات أضفت ستارا شفافا ساحرا على شهرته كحكيم، ونسجت برودة من العظمة حول شخصه، بحيث أن كل ذلك كان يبدو جليا في الرسائل التي كانت تمنون إليه، فكان مراسلوه الفرنسيون يلقبونه بـ «السيد المعظم» وهو لقب الأمير، كما أن زانكايزيا كتب إليه بعنوان (إلى صاحب السمو الماطر الأمير غوته في «وايمر»). وقد علق الرجل الشهم «غوته» على ذلك بقوله «لعل الناس عندما يخاطبونني بهذه اللهجة يقصدون الإمارة الشعرية»

ولما مضى الشاعر العظيم لحال سبيله» كان الرجل الألماني العادي والذي لم يقرأ شيئا من كتبه يخاطب صاحبه بقوله «هل سمعت أن غوته العظيم مات؟» وكثيرا ما أوصلته الأمراض الشديدة إلى حافة القبر، ومن ذلك أنه في السنة الثانية والخمسين من عمره هوجم بمرض الحمرة البشرية ونوبة سعال شديدة، وبعد مرور أربع سنوات انقض عليه مرض النومونيا مع نوبات حادة، كما أن داء المفاصل ومرض الكلى هاجماه فاضطر إلى الرحيل إلى بوهيميا. وما أن أقبلت سنة ١٨٢٣ - وقد بلغ عندها سنه الرابعة والسبعين - حتى نجده واهن القوى روحيا وجسديا. كان ذلك بمثابة رجعة لوداع الحب في (ماري باد)؛ وعلى الرغم من أن المرض الذي أعقب ذلك كان صعبا وصفه، ولكنه كان قتالا في تأثيره

والخلاصة أن علاقته بالحياة أخذت تدريجيا تتعرض للخطر، ولشد ما كانت هذه العلاقة موضعا لإيثاره وحبه وغرامه، فحاول جهد ما استطاع أن يتظاهر بالخشونة كي يلعب دوره الذي قدر له، دور ابن الأرض القوي، دور ابن شجرة البلوط،

وكثيرا ما كان يباهي بذلك . أما أسلوب حياته فكان صحيا ، ولكنه كان أكولا متحمسا ، وكان يميز شهيته الشيء الكثير من التفاهة مع كراهية للكعك والحلويات

إن غوته يمكن أن يعتبر — بمقاييسنا الخاصة — مدمنا للخمر ، لأنه كان يشرب قنينة كاملة من الشراب في العشاء علاوة على عدة أقداح من الشراب الحلو في وقت الغداء ، وكانت عادته ذم الأشخاص الذين يفقدون حيويتهم بسرعة ، وقد أشار إلى ذلك في حديث طريف مع أحد أصدقائه – وقد بلغ آنئذ الحادية والثمانين – في معرض كلامه عن وفاة (سومرنغ العالم الألماني الشهير في التشريح) فقال : « وسمعت بأن سومرنغ توفي في الخامسة والسبعين من عمره التعس وحسب . إن الناس جبناء فهم لا يملكون القوة الكافية للاحتفاظ بعمر أطول من ذلك ، وعليه فليس لي إلا أن أمدح صديقي « بنتام » الاقتصادي الإنكليزي ، ذلك الراديكالي المجنون لأنه أكبر مني بأسابيع قليلة » فأضاف مشاركه في الحديث بقوله « ياصاحب الفخامة لو كنت ولدت في إنكلترة مثله لأصبحت راديكاليا مشابها له ولانتقدت معايب الحكومة كما فعل هو » فما كان من غوته ، وكانت سحنته تشبه سحنة (ميفستوفيلس) إلا أن يجيب « وماذا كنت تظن ؟ لو أنني ولدت في إنكلترة لأصبحت دوقا أو مطرانا دخله ثلاثون ألف جنيه استرليني » إن هذا هو التفاخر بعينه ، والتبجح السافر ، والشعور الراسخ بالتفوق ، إنه كان يعتقد بصورة أسطورية بأنه لا يمكن له إلا أن يولد تحت أحسن الظروف ، وأن الانتقادات لا تصدر إلا من أناس ليسوا حائزين على امتيازات ومواهب خاصة

جوته في أوج قوته

كان غوته معجبا بشعار خاص هو (الجزاء الكامن) في هذا التعبير الذي لم يكن يقف (يصمد) أمام النطق ، ولكنه كان بديهيا على شفتيه ، ماذا يعني هذا التعبير ؟ إن الجزاء ليس كامنا ، إنه يحقق ويحصل عليه ، وكل شيء كامن ليس فيه للإنسان فضل « اللهم إلا إذا فصلنا الكلمة من مضمونها الأخلاقي » وهذا ما يقصده هو بالذات . إن هذا التعبير تجن واضح على الأخلاق والكل نضال واجتهاد . وقد اعتاد غوته أن يقول مفسرا بذلك نظريته « يجب أن يكون الإنسان شيئا كي ينتج شيئا » أو بكلمة أخرى إن ما كان يعنيه لا يخرج عن كون الفضل والكرم في الوجود حاصلا بصفته وجودا لا بصفته عملا ، وقد عبر عن عقيدته هذه بصور متنوعة ، ولكن الجملة التالية هي أحسن ما أراد أن يقوله « كثيرا ما سمعت الناس يقولون : آه لو أن التفكير لم يكن صعبا لهذه الدرجة ، ولكن الشيء المزري هو أن أية كمية من التفكير لا تساعد الإنسان على التفكير ، بل يجب أن يكون تفكير الإنسان صحيحا بالطبيعة كي تقف جميع أفكارك الجيدة أمامك ، كما يقف أبناء الله الأحرار فيقولون : نحن هاهنا » . الطبيعة ! لم يكن غوته – في قلبه – ابن أبيه مطلقا ، ولو أنه لحد ما يعيد بعض الميزات الأبوية ، ولكنه في الحقيقة ابن أمه ، ابن « فراو أجا » — بنت الاندهري — تلك الفتاة ذات المزاج الشفاف ، وأكثر من ذلك كان في الحقيقة ابن الأم الكبيرة ، ابن الطبيعة نفسها . أما فكرته عنها فكانت الكمال بعينه وضرورة الوجود الذي كان متعلقا به أشد التعلق ، ومفهومه له كان لا يتعدى عالما حرا من الأسباب والتصاميم المتداخلة في عالم يعيش فيه الشر جنبا إلى جنب مع الخير ، وقد بين ذلك بصورة جلية بقوله « نحن نتأمل في سبيل جعل الفن كاملا بذاته . أما هم « يعني الأخلاقيين » فيفكرون في التأثير الخارجي ، هذا التفكير الذي لا يهم الفنان الحقيقي كما لا يهم الطبيعة نفسها ، فهي عندما تبدع أسدا أو طيرا لا يهمها أن نلاحظ شيئا من ذلك » . فموهبته المبدعة كانت هبة من الطبيعة التي تحتضن الشر والخير سواء بسواء . فكما أن تأليهه للطبيعة كان المنبع الرئيسي لطيبته ، كذلك كان في نفس الوقت منبعا للا مبالاته وقلة حماسته وسخريته من الأفكار وكراهيته للتجديد ، الذي كان يعتقد بأنه عطل للحياة نفسها . وهذه هي الأشياء الوحيدة التي كان ينتقد عليها . وعليه فليس غريبا أن نرى مقته للثورة الفرنسية مع أنه بشر بمبادئها ومهد لها بكتاباته ، أما مؤلفه « آلام فرتر » الذي أنتجه في عنفوان

شبابه ، والذى كانت فيه العاطفية واضحة بارزة ، فقد هز أسس النظام الاجتماعى القديم هزا عنيفا . إن موقفه هذا تجاه الثورة الفرنسية يعيد إلى الذاكرة موقف أرازموس تجاه « الإصلاح الدينى » ، أرازموس ذلك الهولاندى العظيم الذى عمل جهده للتمهيد للاصلاح ، ولكنه تنكر له بتقزز وامتعاض . وقد جمع غوته نفسه هذين الحادثين « القلاقين » ببيته المشهور لا فى هذه الأيام ، أيام الاضطرابات ، رفضت الفالية[1] الثقافة الحادثة ، كافحت اللوثرية ذلك فى عهدها » . وهو كذلك ، وكذلك فعل عندما رفض القبعة الكاردينالية التى قدمها البابا إلى (الإنسانى العظيم[2]) وقد اعتذر عن ذلك بأعذار رقيقة ، فهو لم يرد أن يجعل من نفسه حليفا للنظام القديم الذى انهارت معظم قيمه ، ولا نصيرا للنظام الجديد الذى اعتبره غير مهذب ، ومع كل ذلك فسياسة غوته المحافظة كانت مزعزعة لا يركن إليها ولا يعتد بها . ولما أصدر (فريهر فون كاكدن) سنة ١٧٩٤ بيانه المعروف الداعى إلى توحيد المثقفين الألمان كى يضعوا أقلامهم فى خدمة (الصالح) — أى قضية المحافظين — ولكى تكون أكثر دقة ، إنشاء اتحاد ألمانى لتخليص البلاد من الفوضى ، وقف غوته صديق كارل أوغست المخلص وشكر البارون لثقته به ، ولكنه اعتذر بقوله (إنه من المتعذر ربط الأمراء والكتاب فى قضية واحدة) ، فانسحابه هذا ، ومحاولته الابتعاد عن كلا الجانبين ، ينطبقان تماما على إرازموس أيضا ، ولكن غوته كان إرازموس ولوثر متقمصين شخصا واحدا ؛ كان اتحادا لطيفا وشيطانيا فى نفس الوقت ، وكان وجوده يمتاز بكونه مثالا وقدوة لغيره . كان مثالا يحتذيه الألمان ، وقد تمكن بنفسه من تحقيق المثالية الألمانية لا بل مثالية الإنسان ، ومع ذلك فقد وقف كثير من معاصريه وقد بلغ بهم الأذى والمرارة حدا جعلهم يكرهونه ، وقد عبر عن ذلك بورن بقوله (إن قوته كانت قوة تخريبية بدلا من أن تكون قوة إنشائية ، وقد كانت عائقا للتقدم وخصوصا جموده السياسى ، وطبيعته الكارهة للفكرة الديمقراطية الوطنية التى كانت تمثل العصر ، فكان يعارض حرية الصحافة وحرية التقدم والديمقراطية والقانون ، وكان يعتقد بأن كل شىء معقول فى ظل الأقلية) . وكان يؤيد الوزير الذى كان يطابق خططه ضد رغبات الشعب ، وكان يشعر شعورا عميقا بالغرور الإنسانى ، وقد اعترف يوما ، بأن مجرد النظر إلى وجهه يكفى للتخلص من الكآبة ، ولكنه لم يكن يؤمن إلا إيمانا ضئيلا بالإنسانية ومستقبلها الحسن ، فلا يمكن تسليم الناس العقل والمدالة ، ولا يمكن إنهاء الحروب وإراقة الدماء والتذبذب فى الشؤون العامة

(للكلام بقية) بطاوية — يوسف عبد المسيح ثروت

ظهرت الطبعة الرابعة الجديدة

للمجلد الاول من كتاب

وحى الرسالة

للأستاذ أحمد حسن الزيات بك

طبع طبعاً أنيقا على ورق صقيل وقد بلغت عدد صفحاته خمسمائة صفحة ونيفاً . وهو يطلب من إدارة الرسالة ومن جميع المكتبات وثمنه أربعون قرشاً عدا أجرة البريد

(١) الفالية هى الفرنسية نسبة إلى الغول : أجداد الفرنسيين

(٢) الإنسانية (humanism) : مبدأ أدبى فى عهد الإصلاح وكانت الغاية منه نشر الفنون والآداب اليونانية والرومانية